ثالثا: مقدمات تأصيلية لمسألة الغناء والموسيقى

الأولى

إنها قضية «عادية» لا «تعبدية»، والأصل فى العادات الإباحة والحل؛ يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة ٢٩].. وما كان الله تعالى ليخلق لنا الأشياء ثم يحرمها علينا، إنما يحرم علينا الخبيث والضار، **ولا تحريم إلا بنص، أو معناه، صحيح صريح**؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام ١١٩]؛ فما سُكِتَ عنه، أو لم يَرِد فيه نص صحيح صريح، أو لم يندرج فى معناه، فهو عفو، لا يجوز تحريمه البتة، رحمةً من الله بنا غيرَ نسيان؛ فإن الله لم يكن لينسى شيئا، حاشاه؛ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم ٦٤].

فأين هو الناقل عن هذه الإباحة فى مسألتنا محل البحث حتى نذهب إليه ؟! ليبرزه لنا مَن يجده.

والصوابُ عندى أنه لن يجده أبدا؛ إذ لم يوجد نصٌ، أو معناه، فيما انتهى إليه اجتهادنا وبعد استفراغ الوسع والطاقة فى البحث والتنقيب والنظر، صحيحٌ صريحٌ يفيد حرمة الغناء والموسيقى، بل قد وجدنا القرآنَ والسنةَ – بنصوصهما ومقرراتهما– والمعقولَ على خلاف ما ادُّعِىَ مِن التحريم، كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

الثانية

١– إن أصل حكم الشرع فى سماع الأصوات الحسنة – سواءٌ كان مصدر الصوت إنسانا أو طائرا أو آلة – هو الإباحة.

وما نطق الشـرع فيه بحكم سـوى ذلك؛ فلعلة خارجة عن حسنه لذاتـه؛ كإيجابه سماع القرآن والإنصـات له (لعلة التعبد، ولكونه كلام الله؛ فهو خير السـماع وأحلى وأجل مـا يمكن أن تصغى إليه أذن) .. وكإيجابه القيام بالأذان (لما فى ذلك من إظهار شعائر الإسلام، والتنبيه علـى دخول وقت الصـلاة) .. وكإيجاب أو ندب سماع الذكر والعلم (لما فى ذلك من فوائد عظيمة جمة) .. وكتحريمه النياحة على الميت (لما فى ذلك من الاعتراض على أمر الله، والإشـعار بعدم الرضا بقدره سبحانه) .. وكتحريمه التكسر والميوعة فى الكلام (لما فيه من نشرٍ للفتنة والرذيلة والتحلل والإباحية).

٢- والقـول بأن الأصل هـو الإباحة ليس مبنيا علـى فراغ، ولكنه مبنى على عدد من الأسـس المحكمة، فوقَ ما ورد فى المقدمة التأصيلية الأولى-، منها :

أ- قولـه تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف ٣٢].. والصوت الحسـن جمالٌ وزينة، والطيبُ منه حُبُّه واسـتماعه أمر فطرى، وتأثيره فى السـامع لـه لا يمكن أن ينكره أحد.

ب- قوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف ١٥٧] .. فلا حرام فى الإسلام إلا للخبيث الضار، سواءٌ كان خبثـه وضرره ماديا أو معنويـا، فرديا أو اجتماعيا، آنيا أو مسـتقبليا .. ولا شـىء فى الصوت الحسـن - ومنه بالطبع الغناء والموسـيقى؛ لما فيهما من حسن لا ينكره عاقل- إلا أنه من طيبات الدنيا التى تستلذها

الأنفس، وتستطيبها العقول، وتستحسنها الفطر، وتشتهيها الأسماع؛ فهو لذة الأذن بمثل ما أن الطعامَ الهنيء لذةُ المعدة والمنظرَ الجميل لذةُ العين والرائحةَ الذكية لذةُ الأنف.

ثم إن الصوت – بالنظر إلى كل مُستلَذٍّ ومُستعذَبٍ منه– يعود إلى الأصل فى اللذة والاستعذاب؛ وهو «إدراكُ الملائم للطبع الإنسانى والفطرة البشرية» .. وهذا هو معنى «الطيبات»؛ أى : ما تستطيبه النفس وتلتذ به من مطعوم ومشروب ومشموم وملبوس ومرئى ومسموع، وغير ذلك مما يجد له الإنسان أثرا طيبا فى نفسه؛ به يهدأ، وبه يرتاح، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه؛ فتراه منشرحَ الصدر منبسطَ الأسارير.

ج– قوله تعالى :﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان ١٩] .. وهذا يدل بمفهومه على مدح الأصوات الحسنة والطيبة، بل والموزونة .. وليس هناك شك فى أن الغناء والموسيقى من ذلك؛ لأن مفهوم «الصوت» يشملها قطعا ويقينا.

د– إن حب الغناء والموسيقى – كنوعٍ من الأصوات الحسنة– «فطرةٌ إنسانية» و«طبيعةٌ بشرية»؛ لأن الصوت الجميل الحسن – ومنه الغناء والموسيقى– مُرَادُ السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد.. ثم إن للصوت الحسن تأثيرا محسوسا فى تليين الطباع، واسترواح النفوس، وجلاء الهموم، وتخفيف الأحزان، وتعميق الوجدان.. كما أن له أثرا ملموسا – وغيرَ منكور– على عطاء الإنسان وتحصيله وإسهامه فى الأعمال البدنية والعقلية.

وكما أن العطلة معينة على العمل، فكذلك اللهو – والغناء والموسيقى

واللعب والترفيه– معين على الجد؛ لأنه دواء القلوب من الإعياء والملل، ومنقذها من جفاف الحياة وقسوة الاستمرار فى الشغل.

ثم إن لله سبحانه وتعالى سرا فى مناسبة النغمات الموزونة للنفس الإنسانية، حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا؛ فمن الأصوات ما يُفرح، ومنها ما يُحزن، ومنها ما يُنوم، ومنها ما يُضحك، ومنها ما يُطرب، ومنها ما يستخرج من أعضاء الإنسان – كاليد والرجل والرأس– حركات على وزنها .. ولذلك قيل – فى كلمات ظريفة– : «من لم يحركه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره؛ فهو فاسد المزاج، ليس له علاج»[1].. و«من لم يتأثر برقيق الأشعار، تُتلَى بلسان الأوتار، على شطئان الأنهار، فى ظلال الأشجار؛ فذلك جِلفُ الطبع حمار»[2].

إن حب الغناء والموسيقى ليس فطرةً إنسانية وبشرية فحسب، بل هو أيضا فطرة كونية :

– فنحن نشاهد الرضيع فى مهده يُسكته الصوت الطيب والنغمات الموزونة عن بكائه

– ونشاهد الجمل – وهو الحيوان الأعجمى – يتأثر بالحداء – وهو نوع من الغناء – تأثرا يستخف معه الأحمال والأثقال، ويستقصر بسببه المسافات الطوال؛ فترى الإبل تمد أعناقها، وتصغى ناصبةً آذانها، وتسرع سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها

– وحتى الأبقار عند سماعها للموسيقى تدر – فى لين وسهولة ويسر

(١) إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى.

(٢) الفتاوى لمحمود شلتوت، ناقلا العبارة عن شيخ الأزهر السابق/ حسن العطار. رحم الله الجميع.

– كميات وفيرة من الألبان التى تتميز بقيمة غذائية عالية

– بــل وحتى النباتات تتأثر بالموســيقى؛ فالحقول التى وُضعت فى جو موســيقى (حيث زُوِّدت الحقــول – فى التجارب العلمية العملية – بأجهزة صوتية قوية يصدر عنها موســيقى) أعطت محصولا أكثر جودةً مــن المحاصيل التى نمت بدون موســيقى. كما ثبــت أن الزهور تزداد نضارتها وتفتحها على أنغام الموسيقى، وتنقبض شيئا ما عند سكوتها.

وما قلوب البشر – ونفوسهم وأرواحهم– بأقل من إحساس الحيوانات والبهائــم والطيور والنباتــات والأزهار، بل إن الإنســان بطبعه عاقلٌ، ذكى، متحضر، مرهف الإحســاس، وله وجــدان وعاطفة لا تتمتع بها تلك المخلوقات.

كيف لا يكون حب الموسيقى – بعد كل ذلك– فطرةً إنسانية وبشرية وكونية :

كيف لا، وللموســيقى على الأجنة أبلغ الأثــر فى تكوينها العصبى والنفسى والوجدانى؛ حيث تؤدى إلى تهدئة ملحوظة فى ضربات قلبه، وتغيرات هرمونية من شأنها وقايته من الأمراض العصبية والنفسية، ومن عيوب النطق والعجز عن التعلم واكتساب المعرفة والمهارات عندما يولد، بالإضافة إلى انخفاض نسبة تشوهات الأجنة انخفاضا ملحوظا.

كيف لا، وللموســيقى أبلغ الأثر علــى الأطفال؛ فلقد ثبت أن ٩٤٪ من حديثى الولادة يسكتون عن البكاء ويستغرقون فى النوم فور سماعهم للموسيقى التى كانوا يسمعونها وهم أجنة. وثبت أيضا أن سماعهم بوجه عام يؤدى إلى رفع مستوى الذكاء والإبداع والتحصيل الذهنى.

كيف لا، وللموسيقى أبلغ الأثر على الإنسان البالغ الصحيح السليم المعافى؛ فسماعه لها يُحدِثُ تغيرات فسيولوجية تتمثل فى :

– زيادة القدرة على تحمل متاعب العمل وضغوط الحياة

– وتنشيط الحواس والدورة الدموية والعضلات

– وتحفيز عمليات هضم الطعام وامتصاصه، والتخلص من المواد الضارة

– وتبعث على الهدوء والطمأنينة والسكينة

– وتساعد على إفراز «الإندروفينات»؛ وهى مواد كيميائية طبيعية لها فعالية فى تسكين الألم والتغلب على الأرق والقلق، وإحداث النشوة، وتنشيط الجهاز المناعى ومقاومة الميكروبات

– وتقلل من إفراز الجسم لهرمونات الإجهاد؛ مما يؤدى إلى هدوء الأعصاب، وتقليل توتر العضلات، وتقليل احتمالات الإصابة بأمراض القلب والشرايين

– وتهدئ معدل التنفس، وتخفض معدل ضربات القلب ومستوى ضغط الدم

– فضلا عن تنشيط مراكز الذاكرة بالمخ

كيف لا، وللموسيقى فوائد جمة ونتائج إيجابية ملحوظة فى علاج عدد كبير من الأمراض [(١)]– كعلاج أساسى أو كعلاج مساعد / تكميلى فى كثير من الأحيان– ، مثل: الأرق والقلق والاكتئاب والفصام والشلل

(١) حتى إن تاريخنا الإسلامى قد شهد – منذ العباسيين – أوقافا للموسيقى التى تُعزَف للمرضى فى البيمارستانات (أى المستشفيات بالتعبير القديم).

الرعـــاش والصرع والبارانويا، والربو الشـــعبى والـــبرد والصداع، وأمراض القلب وضغط الدم ومتاعب سن اليأس، والحروق والتئام الجروح وتسكين آلام الظهر والمفاصل، والمســـاعدة فى عـــلاج بعض أمراض العيون ومرضى السكر، وتخفيف الأعراض الجانبية الناتجة عن استعمال العلاج الكيميائى لمعالجة الســـرطان، وإحـــداث تأثـــيرات إيجابية أثناء الحمـــل (بتقليل مضاعفاتـــه) والـــولادة (بتخفيف الألم والقلق وتقليل فترة الولادة نفســـها بشرط سماع الموسيقى لمدة ٤ أسابيع بدءا من الشهر الثامن للحمل)[1].

(١) للتفصيل انظر :

– علاج بلا دواء، د/ عز الدين الدنشـــارى، (ص ١٠٧– ١٢٠) ، ديســـمبر ٢٠٠١م، كتاب الهلال الطبى، دار الهلال – القاهرة.

– تأثـــير موتـــزارت The Mozart effect للكاتـــب الأمريكـــى/ دون كامبـــل Don Campbell ؛ حيث بين فيه تأثير الموسيقى الكلاسيكية بوجه عام، وموسيقى موتزارت بوجه خاص، كما اســـتعرض فيه الكثير من البحوث والدراســـات العلمية الـــتي أجريت حول التأثير الطبى للموسيقى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

– Clinical Medicine, P ٤٠٦, 6th edition, ٢٠٠٥, Oxford Press

– موقع : www.musictherapy.org .

– الفوائد الطبية للموسيقى، د. يحيى رضا جاد، مقال لم يُنشر بعدُ.

ولاحظ أن كلَّ ما ورد فى المتن – عدا الفقرة الأخيرة– منصب على بيان أثر الموســـيقى على الإنســـان الصحيح الســـليم، مما يؤكد على أن حب الموسيقى أمر فطرى قد جُبلنا عليه، وإلا لما تجاوب جسم الإنسان السليم معها، فتأمل.

وهـــذا بخلاف الموســـيقى الصاخبة (مـــع ما يصاحبها، مِـــن قِبَل ســـامعيها، مِن حركات بهلوانيـــة جنونية رعناء)، كالموســـيقى التى نراها الآن مقترنةً بأكثـــر الأغانى الغربية المعاصرة؛ كموســـيقى «الديســـكو»، وموســـيقى فرق «الهيبز» الغربية، وأمثالها من الموسيقى الصاخبة التى تحول مســـتمعيها إلى قطيع هائج من القرود يقفز يمينا وشمالا، مع رعونة وخفة تُخرِج عن حد الاعتدال، وتَهبط بالكهول إلى التصابى، وبالعقلاء إلى مرتبة المجانين!

فمثل هذه الموسيقى – عندى– مذمومةً ومستقبحة فى العقول، والفطرة البشرية السليمة =

أبعد كل هذا ينكر المنكرون أن يكون حب الصوت الحسن والموزون – من غناء وموسيقى– «أمرا فطريا» و«سنة كونية»؟!

وبناءً على ما تقدم جميعه نقول : إذا كان حب الغناء والموسيقى

= – فيما أرى– تمج سماع هذه الموسيقى وتنفر منها؛ لشذوذها وعدم ملاءمتها للطباع والنفوس المجبولة على الميل إلى سماع الألحان الجميلة واستعذاب الأنغام الراقية التى تسمو بالإنسان وبأحاسيسه ووجدانه ومشاعره، لا التي تهبط به إلى مرتبة المجانين والقرود وذوات الأربع.

والنفس السوية – فيما أظن – لا تستلذها، والعقول لا تستطيبها، والفطر لا تستحسنها، والأسماع لا تشتهيها. وما كان كذلك فهو ليس من «الطيبات»، بل من «الخبائث». وليست بذلك – فيما أرى – مندرجةً، بأى حال من الأحوال، تحت مفهوم «الصوت الحسن» – الذى أضفت الشريعة الإسلامية عليه ثناء حسنا كما سنوضح بعد قليل– ؛ لعدم ملاءمتها للطبع الإنسانى.

إضافةً إلى ثبوت ضرر هذه الموسيقى الصاخبة على الإنسان (أقصد الضرر المادى الطبى)؛ لما تسببه من زيادةٍ فى ضربات قلب الجنين (إن استمعت لها الأم الحامل)، واضطرابٍ فى وظائف أعضائه.. كما تساعد على حدوث تشوهات لأجنة .. كما تُزيد – فى الإنسان العادى الطبيعى غير المريض – معدلات التنفس، وضربات القلب، وضغط الدم.. وتثير الاعصاب، وتُزيد توتر العضلات.. كما تُزيد من إفراز الجسم للأدرينالين والكورتيزون (مما يساعد على: حدوث تصلب الشرايين، وارتفاع مستوى الكوليستيرول، والسكر، وضغط الدم، وإضعاف جهاز المناعة) .. بالإضافة إلى مساهمتها فى إحداث قرحة الإثنا عشر، وحرقان المعدة، وعسر الهضم، والصداع، والدوخة.

كل تلك الأضرار تثبت – بما يمحو كل شك أو ارتياب – أن تلك الموسيقى الصاخبة – فى تقديرى– مناقضةٌ للفطرة التى فطر الله الناس عليها، وإلا لَمَا كان منها ضرر !

فهل يبقى بعد هذا البيان قولٌ ؟!

ما أعذب موسيقانا الشرقية العربية الأصيلة، وما أعذب الموسيقى الكلاسيكية: صفاءٌ، وجاذبية سمعيةٌ، وجمالُ إيقاع، ورقةُ أنغام .. إنها شجنٌ عذبٌ، يجد له الإنسان أثرا طيبا فى نفسه، به يهدأ، وبه يرتاحُ، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه، فتراه منشرح الصدر، منبسط الأسارير

شتان ما بين الحالين والنوعين.

والخلاصة: أنَّ كلَّ صوتٍ منكر حسا – أو شرعا– ليس بطيبٍ يُستلذُّ.

فطرة وغريزة – كما أوضحنا وسنوضح بالأدلة المحكمة من كتاب الله المسطور وكتاب الكون المنظور– فـ «هل جاء الدين لمحاربة الفطر والغرائز ومصادرتها والتنكيل بها – كما يدعى المحرمون؛ بتحريمهم للسماع– أم جاء لتقريرها وتهذيبها والسمو بها وتوجيهها التوجيه القويم السليم لتُستخدم فيما يَرقى بالإنسان معنويا وماديا؟!

إن الأنبياء إنما بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها .. والشريعة إنما جاءت بتعاليمها لتوجه الإنسان – فى مقتضيات الفطرة والغريزة– إلى الحد الأوسط؛ فهى لم تنزل لانتزاع غريزة حب المال، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذى لا جشع فيه ولا إسراف ولا تقتير .. وهى لم تنزل كذلك لانتزاع غريزة الحزن، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذى لا هلع فيه ولا جزع ولا إياس من رحمة الله .. كما لم تنزل لانتزاع غريزة حب المناظر الطيبة والمسموعات المستلذة، وإنما نزلت بتهذيبها وتعديلها على وجه لا ضرر فيه ولا شر.

وهكذا تقف الشريعة بالنسبة لسائر الغرائز موقف الاعتدال والقصد والتنظيم وكبح الجماح عن الحد الذى يُنسِى الإنسان واجباته أو يفسد عليه أخلاقه أو يحول بينه وبين أعمال أخرى ألزم وأوجب .. وقفت موقف الاعتدال والتنظيم، لا الإفراط ولا التفريط، ولا الإماتة ولا الانتزاع .. فما أعظمها وأكرمها من شريعة»[1]!

(١) أصل فكرة هذه الفقرة مستفاد – بتصرف؛ تنقيحا للعبارة وتحريرا لها وزيادة عليها وحذفا منها– من فتوى شلتوت المتعلقة بالغناء والموسيقى ومجموع فتاوى ابن تيمية وكتاب القرضاوى فى الغناء والموسيقى.

هـ – إن الشـريعة الإسـلامية قد أضفت على الصوت الحسـن ثناءً حسـنا، بل أفصحت عن طلبها واستحسانها واستحبابها له فى أقدس كلام وأطهر مقام؛ وذلك بحثها على التغنى بالقرآن الكريم وعلى التغنى بالأذان (لأن النفوس بطبعها تستلذ بالأصوات الحسنة، بل إن الشريعة ما حثت على التغنى بالقرآن إلا لأجل أثر الصوت الحسن فى النفس).

أمـا الأذان: فقد قال (صلى الله عليه وسـلم): «.. قم مع بلال فألق عليه ما رأيت، فليؤذن به؛ فإنه أندى [وأمدُّ] صوتا منك»[١].

وفـى عودته (عليه الصلاة والسـلام) من غزوة حنين، سمع أناسـا يؤذنون بالصلاة؛ تقليدا لمؤذن رسول الله ﷺ واستهزاءً بالمسلمين، فقال ﷺ: «قد سمعتُ فى هؤلاء تأذين إنسـان حسن الصوت» فأرسل إليهم النبى ﷺ، وقال لصاحب الصوت الحسن: «تعال»، فأجلسه بين يديه ومسح على ناصيته وبَرَّك عليه ثلاث مرات، ثم قال ﷺ: «اذهب فأذن عند البيت الحرام» وعلَّمه الأذان[٢].

وأما القرآن: فقد قـال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم[٣] [فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا]»[٤].

وقال ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٥].

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩) والترمذى (١٨٩) والزيادة له. وصححه الألبانى.
(٢) أخرجه النسائى (٦٣٣) وصححه الألبانى.
(٣) أى لأن الكلام الحسن يزداد حُسنا وزينة بالصوت الحسن.
(٤) أخرجه النسـائى (١٠١٥) وابـن ماجة (١٣٤٢) والدارمى والحاكـم. والزيادة لهما. وصححه الألبانى فى الصحيحة (٧٧١).
(٥) أخرجه البخارى (٧٥٢٧) وأبو داوود (١٤٦٩) وأحمد (٣/ ٤٤، ٧٥).

وقال ﷺ : «ما أَذِنَ اللّه لشيءٍ ما أَذِنَ لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن»[١].

وعن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت: «أبطأتُ على عهد رسول اللّه ﷺ ليلةً بعد العشاء، ثم جئتُ، فقال: «أين كنتِ ؟»، قلتُ : كنتُ أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثلَ قراءته وصوته من أحد. قالت: فقام ﷺ وقمتُ معه حتى استمَع له، ثم التفت إلىَّ فقال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد للّه الذى جعل فى أمتى مثل هذا»[٢].

ومن هنا تعلم أن الإسلام قد راعى ميل الإنسان – بحكم فطرته– لسماع الصوت الحسن، وأدرك ما له من أثرٍ عليه؛ فحث على التغنى بالأذان والقرآن؛ لينسجما مع النفوس؛ فإن للصوت الحسن تفاعلا عجيبا وغريبا مع النفوس والأرواح، حث يسرى فى الجسم، ويجرى فى العروق؛ فتصفو له النفس، ويرتاح له القلب، وتهتز له الجوارح .. انظر وتأمل ما للتغنى بالقرآن من أثرٍ فى جلب الخشوع والسكون والأنس باللّه، وما للترنم بعبارات الذكر والشكر للمنعِم من أثرٍ يلامس المشاعر الباطنة .. وما للإنشاد بالشعر الجميل فى الحكمة والعلم والأدب وحب الخير ما يشد القلوب للعمل .. وما لسماع الغناء والموسيقى وأصوات البلابل والعصافير من مَجلَبةٍ للسكن والهدوء وراحة البال والفكر.

وقال النبى ﷺ لأبى موسى الأشعرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما سمع قراءته: «لقد أوتيتَ مزمارا من مزامير آل داود».

(١) أخرجه البخارى (٧٥٤٤) ومسلم (٧٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٦٥) وابن ماجة (١٣٣٨). وصححه الألبانى فى الصحيحة (٣٣٤٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد، فسمع قراءة رجل، فقال : «من هذا ؟» فقيل : عبد الله بن قيس. فقال ﷺ : «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود»[1].

والمقصود من هذه الأحاديث مدحُ هذين الصحابيين فى حسن صوتهما بالقرآن، وأن صوتهما يشبه حسنُهُ حُسنَ أصوات المزامير؛ فشبه ﷺ هذه بتلك بجامع الحسن المؤثر فى القلوب والنفوس.

والنبى ﷺ يستحيل أن يُشَبِّهَ ما أحبه بما أبغضه وحرمه وقضى بخبثه وشيطانيته – والمخالِف يزعم أن النبى ﷺ يبغض الغناء والمعازف ويحرمهما–.

إن تشبيه النفيس بالخسيس من سوء الأدب، كما أن تشبيه الحلال بالحرام لا يجوز، وحاشا رسول الله ﷺ أن يفعل شيئا من ذلك.

والشاهد من هذا أن الأصوات الموزونة الخارجة من آلات المعازف طيبةٌ فى الأسماع، حسنةٌ فى العقول، ومن أجل ذلك استعملها النبى ﷺ «مقاييس» للأصوات الحسنة المحبوبة؛ حيث شَبَّه الصوتَ الحسن فى قراءة القرآن بصوت المزامير؛ لحسن صوت قارئ القرآن وحلاوة نغمته .. ولو كانت محرمةً لَمَا استعملها مقاييسا على الإطلاق كما سيأتى توضيحه إن شاء الله.

وها هو ذا التابعى الجليل الكبير أبو عثمان النهدى يقول – مستخدما نفس أسلوب النبى ﷺ السابق–: «ما سمعتُ مزمارا ولا طنبورا ولا صنجا أحسن من صوت أبى موسى، إن كان ليصلى بنا فنود أنه قرأ

(١) أخرجه البخارى (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣ مكرر).

البقرة؛ من حسن صوته»[1].. فكأن أبا عثمان يقول : سمعتُ أحلى الأنغام الموسيقية من أحلى آلات المعازف، فكان صوت أبى موسى بالقرآن أحلى منها وأعذب .. فشبَّه صوتَ أبى موسى بأصوات الآلات بجامع الحسن المؤثر فى القلوب والنفوس.

ز- وهى عينها المقدمة الثالثة الآتية توا:

الثالثة

إن لذة النظر فى المبصرات الجميلة (كالماء والخضرة والوجه الحسن وسائر الألوان الجميلة). وذلك فى مقابلة ما يُكرَهُ من المبصرات القبيحة والألوان غير المنسقة.

كما أن لذة الشم فى الروائح العطرة والطيبة. وذلك فى مقابلة الروائح النتنة والمستكرهَةُ.

كما أن لذة التذوق فى الطعوم اللذيذة كالحلاوة والحموضة. وذلك فى مقابلة المرارة المستبشعة.

كما أن لذة اللمس فى النعومة واللين. وذلك فى مقابلة الخشونة

كما أن لذة العقل فى العلم والمعرفة. وذلك فى مقابلة الجهل والبلادة.

كما أن لذة السمع فى سماع الأصوات الطيبة والرقيقة والمنشطة للفكر والوجدان (كسماع القرآن والأذان والتواشيح والحداء والغناء وصوت العصفور والعندليب والمعزف وكل آلة لها صوت مستساغ). وذلك فى مقابلة نهيق الحمار ونباح الكلب ونعيق البوم والغربان[2].

---

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام فى «فضائل القرآن»، والبخارى فى «خلق أفعال العباد» (ص ١٢١، رقم ٢٩٠)، كلاهما بسند صحيح.

(٢) أصل فكرة السطور التسعة السابقة مستفاد - بتصرف؛ تنقيحا وتحريرا وإضافة=

فــلا معنى – بناءً على ما ســبق مــن توضيح– لأن تســتمتع العين بالمناظــر الجميلــة، والأنف بطيبــات الروائح من مســك وعنبر وورد، واللســان بالمطعومات الحلوة، واليد بالملموسات الناعمة واللينة، والعقل بالعلم والمعرفة .. لا معنى لأن تستمتع كل تلك الحواس والأعضاء بذلك، ولا تســتمتع الأذن بالطيب من الأصوات، سواءٌ كان هذا الصوت صادرا من إنســان أو من آلة أو من طائر أو حيوان؛ إذ «لا معنى على الإطلاق للاستمتاع بصوت الهزاز والبلبل دون صوت الآلات – التى هى تقليد من الإنسان لصنع الله فى الطبيعة – .. وإذا جاز سماعُ صوتٍ غُفْلٍ (كصوت العصفــور) فلِمَ نُحَــرم سماع صوت موزون صادرٍ من آلة مصحوبا (أو غيرَ مصحوب) بكلام يُفهَمُ منه الحكمة والمعانى الجميلة. هذا «صريح العقل» الذى «يستحيل/ يمتنع» أن تأتى الشريعة بخلافه!

إن العندليــب والعصفور – وغيرهما من الطيور– لها أصوات موزونة متناسبة المطالع والمقاطع؛ لذلك يستلذ بسماعها الإنسان .. فهى موسيقى ربانية .. فلماذا نحرمها إذا قلدها الإنسان وهو يحاكى ما فطر الله عليه بعض خلقه ؟!

إنما وُضِعت الموســيقى ونغماتها على أصوات هذه الطيور؛ تشــبيها للصنعــة بالخِلقة، وما من شــىء توصــل إليه علماء هــذا العصر وأهل الصناعة إلى تصويره أو ابتكاره إلا وهو مأخوذ – فى الغالب– من الخِلقة التى بَدَعَها الله تعالى»[1].

=وحذفــا – مــن إحياء أبــى حامد الغزالى ومقدمة ابــن خلدون وفتوى شــلتوت المتعلقة بالغناء والموسيقى وكتابَىْ سالم على الثقفى والقرضاوى فى الغناء والموسيقى.

(١) أصل فكرة هذه الفقرة مستفاد – بتصرف؛ تنقيحا وتحريرا وإضافة وحذفا – فيها– .

ونخلص من هذا إلى أن الموسيقى يستحيل أن تحرم لمجرد كونها صوتا طيبا موزونا مستلَذا، وإلا فلنحرم سماع أصوات الطيور لمجرد كونها أصواتا طيبة موزونةً مستلذة!

إن اللذة بسماع الأصوات هى سبب إقبال النفوس عليها واشتغالها بها، سواءٌ كانت قرآنا أو أذانا أو غناءً أو موسيقى؛ فالأصوات الحسنة مؤثرة على العقول والأذهان، وفاعلة فى الطباع والأمزجة، بما لا يخفى إدراكه فى واقع الحياة.

ولذلك فالأصل فى السماع هو الحل جريا على الفطرة؛ إذ الإسلام دين الفطرة. واللذة بذلك مشروعة فى أصلها؛ لموافقة الطبيعة الإنسانية.

إن سماع الأصوات – أيا كان مصدرها– لا يمكن أن يحرم بمجرد كونه «صوتَ آلة» أو «صوتَ إنسان» أو «صوتَ طائر أو حيوان»، وإنما يحرم الصوت إذا صاحبه عارض تحريم أو اقترن بمنكر؛ كإذا ما استُعين به على محرم، أو اتُّخِذَ وسيلةً إلى الحرام، أو ألهى عن واجب لا يحتمل التأخير.

= من إحياء أبى حامد الغزالى وكتب عمارة والقرضاوى فى الغناء والموسيقى – حيث تابعاه فيها –.